وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفرديــة وثقافــة النهضــة

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

«لسنا... أصحاب أهداف الحكمة الأبدية: فإنها تخرج عن طوقنا. ويؤدي بنا هذا الادعاء (الهيغلي) الجريء والمتعلق بخطة عالمية، إلى المغالطات، لأنه ينطلق عن قضايا مغلوطة... على أننا مع ذلك سنبدأ من النقطة الواحدة المفتوحة أمامنا، وهي المركز الأبدي لجميع الأشياء، أي الإنسان في معاناته، وكفاحه وفعله، شأنه الآن، وكما كان، وكما سيكون إلى أبد الآبدين».

ياكوب بوركهارت

مقدمة تأملات في التاريخ

وضع المؤرخ السويسري ياكوب بوركهارت (١٨١٨ ـ ١٨٩٧) قبل أكثر من قرن كتاباً شهيراً، احتفظ براهنيته حتى اليوم، عنوانه: **حضارة عصر النهضة في إيطاليا**. ومع أن الكتاب اقتصر على بلد أوروبي محدّد، في فترة زمنية شبه محدّدة، فإن أفكاره لامست قضية النهضة، في أسئلتها المختلفة، ارتبطت بإيطاليا أو لم ترتبط بها. تعطي هذه الأفكار، التي تدور حول مكان وزمن محدّدين، وتفيض عنهما، للكتاب أهمية خاصة، يلمحها الباحثون في قضايا النهضة وأسبابها وعوائقها، بعد أن أصبحت «النهضة» في احتمالاتها المختلفة موضوعاً كونياً.

أولاً: صورة الإنسان النهضوي

١ ـ وصف ياكوب بوركهارت في كتابه الذي نشر عام ١٨٦٠، صورة «الإنسان النهضوي»، متّخذاً من إيطاليا نموذجاً فريداً، وصل إلى الوعي النهضوي قبل غيره. أكّد المؤرخ فرادة النموذج، الذي تكوّن في حياة مدينية حضرية، في صيغ متواترة، تميّز إيطاليا من غيرها، وتعتبر الإنسان النهضوي الإيطالي «بكر أبناء أوروبا الحديثة». أقام معياره على مفهوم

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفردية في اشتقاقاتها المختلفة، التي تحيل على فرد حرّ، مزّق غلالات من العقائد والأوهام و«التحيّزات الطفلية»، جاءت من تعويذة عرقية، أو من وضع اجتماعي متعدّد القيود. ترجمت هذه الفردية أحوالها في أوضاع نفسية، مقصدها النجاح والكسب وتحقيق السلطة والنفوذ أو الوصول، في حالات الحدّ الأدنى، إلى الرضا والسعادة. تميّزت الفردية الإيطالية، أو الفردية في شكلها الإيطالي الذي لا شبيه له، بتحوّلها إلى ظاهرة اجتماعية، يندرج فيها الحاكم المستبد وقائد المرتزقة والموظفون ورجال الدين، بما في ذلك «الرعايا»، الذين لم تبرأ حياتهم من الدوافع الفردية. ولهذا يقول المؤرخ: «على أن إيطاليا شرعت قرب نهاية القرن الثالث عشر تزدحم بالفردية»، أو أن يشير إلى الفرد المستقل، الذي «تشكّل لأول مرة تشكيلاً كاملاً في استبدادات القرن الرابع عشر»، أو إلى الطابع الفردي، الذي «لا نعثر، ولو بصورة استثنائية، على نظير موازٍ له في التاريخ المعاصر»[١]. لم تقتصر النزعة الفردية على الإيطاليين الذين يعيشون في مدنهم المختلفة، منتصرين كانوا أو مهزومين، إنما لازمت إيطاليين آثروا المنفى، وعرفوا «الروح العالمية»، التي تمثّل في حدّ ذاتها مرحلة عالية من مراحل الفردية. ومع أن المؤرخ يقدّم وصفاً جمالياً لفردية حداثية، فهو لا يراها إلا في الروح الإيطالية، ذلك أن الإيطالي «يأخذ فضائله معه حيثما ذهب»، كما يقول.

ترجمت الفردية قيمة الإنسان، وعبّرت عنه كقيمة مستقلة بذاتها، تتعيّن بالجدارة والكفاءة والمعرفة، بعيداً عن مراجع معيارية، عائلية كانت أو طبقية، وبعيداً أيضاً عن التقويم الأخلاقي. ولهذا تراجع كلياً معنى المولد النبيل والأصل العريق، وغير ذلك من معايير تقوّم الفرد بما هو خارجه، بعد أن غدا الإنسان محصّلة للعلم والعمل، وتجسيداً لثقافة عصرية، اتّخذت من المساواة مرجعاً لها. لم يعد المولد الاجتماعي مدخلاً إلى تقويم جودة الرجل أو رداءته، وتآكلت النبالة الموروثة أمام «نبالة محترمة»، تأتي من استثمار الأرض أو العمل في التجارة، وما عاد الامتياز «في السياسة والبلاط» ضماناً حاسماً. ولعلّ هذه التحوّلات، التي رأت الإنسان في كفاءته، هي التي قوّضت عبودية الألقاب التي كانت تسخّف العمل وتسوّغ أهمية زائفة، ذلك أن بين اللقب والعمل اليومي المشخّص مسافة شاسعة. ولذلك قال البعض متهكماً: «ولما كنّا قد ذهبنا إلى درجة أن أنعمنا باللقب وشرفه على الموتى، فلماذا لا نطلقه على أحد الثيران؟»[٢].

ساوت الكفاءة بين البشر الذين يتمتعون بها، مستبدلة بمعيار الولاء، الغائم الحدود، معيار الاعتراف، الذي يتعامل مع إنسان محدّد الاسم والعمل والمنتوج. عبّرت المساواة القائمة على الجدارة، عن تقدم في المرافق الاجتماعية كلها، بدءاً من فلاح جلف خشن الطباع، وصولاً إلى حاكم ـ طاغية: «أصبحت شخصية الحاكم متطورة تطوّراً بالغاً، بل كثيراً ما تكون ذات أهمية عميقة قصوى، وممثلة في خصائصها المميزة لأحوال الزمان

(١) ياكوب بوركهارت، **حضارة عصر النهضة في إيطاليا**، ترجمة عبد العزيز توفيق، ٢ ج (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥)، ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٧.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وحاجاته، بحيث تصبح عملية تكوين وإصدار حكم أخلاقي وافٍ عليها أمراً ليس باليسير»[٣]. تنطوي الجملة الأخيرة، التي تشير إلى حكم يصعب الوصول إليه، على التباس صادر عن كفاءة عالية، لا تلتفت إلى الخير والشر، يتقاسمها شاعر موهوب، مثل دانتي، وطاغية يمارس حياة أنيقة، والفارس مرتزق ناجح، يصبح أميراً. أفضت الكفاءة إلى «التحالف الطبيعي بين الطاغية المستبد والعالم»، كما يقول المؤرخ، منتهية إلى احتفاء بمواهب يتقاسمها الطرفان، وإلى تسويغ استبداد يتمتع بالموهبة. تفصح علاقة الطرفين عن وظيفة محدّدة عنوانها: «تكييف الوسائل للغايات» التي تحيل على تحالف الحاكم المستبد والجدارة الفكرية، دون الالتفات إلى الأصول الاجتماعية والمعايير الأخلاقية. فقد كان هذا الحاكم يحتاج إلى الموهبة، لا إلى الأصل والمولد، ذلك أن الجدارة الفكرية قادرة على حجب الشرعية الزائفة بشرعية «حقيقية» معترف بها من أفراد المجتمع. ولذلك، تعامل الحاكم مع كل الذين يتقاسمون معياره للكفاءة الفردية، فنّانين كانوا أو شعراء ومدرّسين وعلماء. فلا وجود للإنسان خارج كفاءته، ولا وجود لكفاءته خارج فرديته[٤].

ترجمت الفردية قيمة الإنسان، وعبّرت عنه كقيمة مستقلة بذاتها، تتعيّن بالجدارة والكفاءة والمعرفة، بعيداً عن مراجع معيارية، عائلية كانت أو طبقية، وبعيداً أيضاً عن التقويم الأخلاقي.

٢ ـ قرّر بوركهارت أطروحتين، تقول **الأولى**: «إن التيار الرئيسي لذلك الزمن ظلّ ماضياً في طريقه نحو إذابة وانصهار الطبقات، بالمعنى العصري للعبارة»[٥]. تشير الجملة إلى مجتمع تتقاسم طبقاته الاجتماعية المختلفة تصوّرات عصرية، تحتفي بالفردي والدوافع الفردية، كما لو كانت الفردية المحرّرة من قيودها عنصراً وحيداً حاسماً في مجانسة المجتمع، وتزويده بمؤسسات وأساليب حياة جديدة.

وتقول **الثانية**: «وهنا تصل إلى مرتبة النضج واحدة من أثمن ثمرات المعرفة بالعلم والإنسان (أي الفردية)، التي بسببها وحدها يجب أن يُسمَّى عصر النهضة الإيطالي باسم زعيم العصور الحديثة». تستمد «زعامة العصر» من الإنسان الجدير بزعامته الذاتية، الذي حلم في القرن الخامس عشر، بالإنسان الكامل، ولو بقدر، موائماً بين وجودي مادي يؤمّن حاجات متوالدة، ووجودي روحي غايته الانسجام والتناغم، مجسّداً تحوّلا كيفياً شاملاً، «عرفته إيطاليا وحدها» ولم تعرفه البلدان الأخرى. وهذا ما دفع بالمؤرخ، وهو يصف الوجوديْن الكيفييْن المتكاملين، إلى صياغات لا تقتصد في الثناء: «خلق الفنانون الإيطاليون أعمالاً تتصف بالكمال؛ تجسّدت في الإنسان الكامل»؛ عرفت المدن الإيطالية «أعلى التطورات

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٧.
(٤) Paul Hamilton, *Historicism*, New Critical Idiom (New York: Routledge, 1996), p. 23.
(٥) بوركهارت، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفردية بطبيعة قوية متنوّعة»؛ قبضت على جميع عناصر ثقافة العصر، مثل الإتقان الدؤوب والانفتاح على المعرفة الشاملة... وصولاً إلى «الرجل جامع الجوانب»، أي صاحب جميع «المواهب» الذي يُعنى باللغات والتاريخ والجغرافيا والمعارف النظرية. غير أن المؤرخ لا يلبث أن يميل إلى التخصيص، متحدثاً عن الإنسان «الكلي الجامع لجميع الجوانب»، الذي يجمع بين التعدّد والإتقان، كان ذلك في مجال العلم أو في أمور الفنون المختلفة. تتكشف في شخصية «الجامع الكلي» إرادة قوية خاصة، تسمح للوعي النهضوي أن يقول: «يستطيع الرجال أن يفعلوا كل شيء إذا أرادوا».

٣ ـ كتب بوركهارت، في الجزء الثاني من كتابه فصلاً بعنوان «الرجل الكامل في المجتمع»، كاشفاً عن صورة «رجل البلاد»، الذي يرى المجتمع فيه مثلاً أعلى. ليس «الرجل الكامل» إلا نعتاً آخر للإنسان «الكلي الجامع»، الذي يمارس وظيفة عالية محدّدة. فهو منصرف إلى صقل مناقبه، يسيطر على عمله، ولا يسيطر عمله عليه؛ يرفض القيام بما يعارض الأخلاق؛ حرّ مستقل ينصاع إلى دافع داخلي، ولا يأتمر بإرادة خارجية؛ يبني حياته على فكرة الشرف، لا على فكرة الواجب. لا تختلف صفات «البلاط» والحال هذه، عن صفات الإنسان الذي يعمل فيه، فهو عالي التنظيم، منشدّ إلى الفضيلة، ومؤسس على المنافسة الشخصية، التي تأمر بمتنافسين ينزعون، بأقدار مختلفة، إلى «الكمال الشخصي». وبقدر ما تقضي هذه المنافسة بإلمام حقيقي بالمعارف واللغات، فهي تتطلب مهارات راقية متعدّدة، تتضمّن إجادة الرقص وتذوّق الموسيقى وألوان الأدب والفن المختلفة... ومع أن النزوع إلى الكمال يتأتى من شخصية نوعية تحرص على تجسيد الفضائل، نظراً وعملاً، فهو يصدر أيضاً عن «التفاعل التبادلي» للمهارات والمواهب المتنوّعة. ينطوي هذا النزوع على أبعاد ثلاثة متكاملة: بلاط يصنعه الإنسان الفاضل وتحكمه الفضيلة، وإنسان تقوده القيم النبيلة، لا المنافع، و«مجتمع كريم» يستأنس بمثال أعلى، ويعمل «المثال الأعلى» على الارتقاء به. تظهر الحياة السياسية، شاملة الاستبداد أو تميل إلى الاعتدال، مرجعاً أساسياً لتكوّن الإنسان الإيطالي في عصر النهضة. لا تحيل «الفضيلة»، بهذا المعنى، إلى الأخلاق في دلالتها التقليدية التي تفصل بين الخير والشر، بل إلى «المثال» الذي تريد الفردية أن تصل إليه، والذي يجعل الفرد النهضوي، في نهاية المآل، حرّاً وعبداً في الوقت ذاته: فهو حرّ لأنه مكتفٍ بمعاييره الفردية، وهو عبد لأنه سائر وراء رغبات لا يمكن إشباعها.

٤ ـ ربط بوركهارت، وهو يدرس «الإنسان النهضوي»، بين الفردية، التي تعني إنساناً يعترف بذاته، ويميّزها من غيرها، والبعد النفسي الصادر عنها، الذي يحتقب بُعداً جوانيّاً مسكوناً بالطموح والصور والمثل، وبعداً برّانيّاً، يلتفت إلى الجمال والتناسب والمباهج الدنيوية، ويحتفي بالنظافة والأناقة وثقافة الملبس والمسكن. انعكست آثار هذه التصوّرات على اللغة والاختلاط الاجتماعي، فأخذ البلاط بلغة مهذّبة تليق به، وقابلة للتداول اجتماعياً، سمتها الأساسية الوضوح والبساطة، على مستوى النطق أو المعنى. وهذا ما أعطى اللغة، التي أرادت أن تكون راقية وأداة توصيل في مجتمع ينزع إلى الارتقاء، قيمة كبيرة من الناحية الاجتماعية، فهي تعبّر عن مستوى الإنسان، وتملي عليه اللياقة وأناقة السلوك والحديث. وبقدر ما بدا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإنسان قيمة مستقلة بذاتها، بدت اللغة الراقية قيمة موازية، تستحق الاحترام، وشيئاً نفيساً وثميناً من الواجب الاعتزاز به وصيانته. بيد أن الأمر الأكثر أهمية وفاعلية تكشّف،عفوياً، في الوجوه السياسية والقومية، ذلك أن اللغة الجديدة الراقية (حوالى العام ١٣٠٠) شكّلت مرجعاً للطبقات المتعلّمة في «كل ولايات شبة الجزيرة الممزّقة»، وغدت أداة متاحة للناس جميعاً، فقراء كانوا أو أغنياء، ودفعت إلى «الحديث النقي»، بلغة المؤلف، الذي لم يكن معروفاً في فرنسا وألمانيا آنذاك.

حملت لغة البلاط الراقية، التي أعيد إنتاجها اجتماعياً، دلالات متعدّدة: فهي مرآة لحقيقة الإنسان الناطق بها، تترجم ثقافته ومواهبه وأخلاقه؛ وهي جسر بين النطق الواضح الجيد والكتابة الواضحة الجيدة، وصورة عن تجديد اجتماعي حاسم ديمقراطي المضمون، هزم أسطورة اللغة القديمة النقية، التي كانت من نصيب فئة اجتماعية محدودة، وفرض لغة يتقاسمها الشعب والبلاط معاً. بدت اللغة، في هذه الحدود، أرضاً حيادية، تقبل بالذين يقبلون بها مهما كانت أصولهم، دون أن تكون محايدة تماماً، لأنها أسست لشخصية قومية، تغاير قوميات أوروبية مجاورة. قرأ المؤرخ في اللغة الواضحة الراقية وضوحاً في الحديث الذي يقوم عليها، ورأى في الحديث الجماعي الواضح طريقاً إلى «إنتاج الأفكار النبيلة»، التي هي ثمرة الاجتماع، لا العزلة والانقطاع. شكّلت اللغة الواضحة مدخلاً إلى «اختلاط اجتماعي» قوامه حوار يستبعد العنف ويترجّم دلالات السياسة، بالمعنى الحديث، التي تنقض القهر وتعترف بالكلام. يقترب مفهوم «الاختلاط الاجتماعي»، المؤسس على الحوار الواضح وإنتاج الأفكار النبيلة، من مفهوم «الملاط الاجتماعي»، الذي جاء به الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، في الثلث الأول من القرن العشرين، حيث الأيديولوجيا هي ذلك «الملاط» الذي يحفظ وحدة المجتمع.

ثانياً: الفردية النهضوية في أشكال مختلفة

١ ـ عبّر الإنسان النهضوي الإيطالي عن نفسه بمثل وممارسات نوعية، وعبّر عنها، بشكل مواز، بمقولتين متكاملتين، هما: السيرة والشهرة.

أ ـ عملت السير المختلفة على حفظ صفات الشخصيات النوعية، التي تطلّعت إلى مثال رفيع، ورأى الأشخاص العاديون فيها مثالاً تجب محاكاته. انطوى المثال، في علاقاته المختلفة، على وعي فردي يحسن المقارنة، ويعرف الفرق بين ما ينبغي التخلّص منه، وما يجب الاجتهاد في اكتسابه والوصول إليه. توقف الوعي المقارن أمام «الرجال الأفذاذ»، وتأمل ما جعلهم أفذاذاً، وما يميّز رجلاً من آخر، مدركاً أن التكامل المتنوّع طريق إلى ارتقاء جديد. صعدت كتابة السيَر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ووحّدت بين مظاهر الإنسان الخارجية ودفائن عالمه الداخلي، خلافاً لسير أوروبية تمحورت، في ذاك الزمان، حول «خبرات الحياة الخارجية للفرد». قاد الاحتفاء بـ «الإنسان الكلي»، أو بـ «الرجال الأفذاذ»، إلى إحياء التاريخ الروماني القديم واستعادة صور روما القديمة، كما لو كان الاحتفاء بالمثل العليا مبرّر استعادة القديم، وإذابته مع الجديد الإيجابي في «زمن مثالي»، يتوزّع على القديم والجديد والمستقبل في آن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولهذا اتخذ الحكام من «الإمبراطورية الرومانية القديمة مثلاً لهم يحتذونه»، كان ذلك في الشأن السياسي، أو في بناء نسب قومي عميق الجذور، ذلك أن التسلّح بثقافتها جعل الإيطالي يشعر أنه «مواطن في أشدّ أمم الأرض رقياً وتقدماً»(٦).

ب ـ أضاءت «الفكرة الحديثة عن الشهرة» معنى «الإنسان الفذّ» بشكل آخر، فهي إشارة إلى «إنسان مختلف متفرّد في الإنجاز اعترف بإنجازه مواطنوه»، وإشارة إلى إنسان نوعي يدرك أن شهرته تلزمه بمسؤوليات ثقيلة نبيلة المضمون. يدور الأمر كله في مجال «الاعتراف العليم»، إن صحّ القول، الذي يلزم الإنسان العادي بالتعلم من «الإنسان الشهير»، ويلزم الأخير بالالتفات إلى الأول وتعليمه، نظراً وسلوكاً. أفضى الاحتفاء بالشهرة، من حيث هي مجاز للقيم المتفوّقة، إلى «تقديس مسقط رؤوس مشاهير الرجال»، وإلى تشييد «قبور فاخرة» تليق بهم. لكنه أفضى، أولاً، إلى تغيير معنى القداسة والقديسين، لأنه استبدل بالصور الدينية المتوارثة صوراً دنيوية قوامها الإبداع، بل إن وحدة التقديس والإبداع هي التي دفعت إلى «تذكّر المواطنين القدماء»، الذين أعطوا ما لم ينجزه غيرهم.

> **إذا كان تأمل الجمال الطبيعي أمراً عرفه البشر منذ زمن قديم، فإن الفردية المتطورة أملت على الإنسان أن يتأمل عالمه الداخلي، وأن يحاور الروح في خفقاتها الملونة.**

٢ ـ اقترن هذا كله بإعادة اكتشاف معنى الجمال، طبيعياً كان أو جمالاً يتجسّد في المخلوقات البشرية. وإذا كان تأمل الجمال الطبيعي أمراً عرفه البشر منذ زمن قديم، فإن الفردية المتطورة أملت على الإنسان أن يتأمل عالمه الداخلي، وأن يرى ما في نفسه، وما في نفوس الآخرين، وأن يحاور الروح في خفقاتها الملوّنة. وما ظهور الأدب الحديث، الذي وجد في دانتي عنوانه الأكبر، إلا ترجمة شعرية لاحتفال الإنسان بذاته، تعبيراً عن سير الروح البشري الحثيث إلى وعي شعوري، يسائل دفائن الإنسان وأسراره. ولعل إكبار الجمال هو الذي فرض «التعليم العام الشامل للعين الذي جعل حكم الإيطاليين في ما يتعلق بالجمال أو القبح الجسدي حكماً لا نهائياً كاملاً..»(٧)، وحدّد شروط التقاط الجميل، وتمثيل الجمال بالصورة. وبسبب ذلك عُني الأطباء الإيطاليون بعلم وظائف الأعضاء عناية خاصة، موحّدين بين دراسة الجسم الإنساني والدراسات الفنية.

٣ ـ نتج من الفردية المتطورة الفصل بين الذاتي والموضوعي، بين الإنسان والعالم المحيط به، والذهاب إلى الطبيعة واستنطاقها، والعمل على الردّ على أسئلتها المتنوّعة، كما أدّى إلى تطور ملاحظة العالم الخارجي، والركون إلى التجربة والتجريب. ظهر، اعتماداً على هذا، إنسان علماني مفتون بأشياء العالم الخارجي، تجسّد في إنسان إيطالي يأخذ بالروح الاستنباطية، ويتّجه، مدفوعاً بالفضول المعرفي، إلى المستقبل. ساعد على نمو التساؤل المعرفي

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٦.
(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تحول العقيدة الدينية إلى عاطفة ذاتية متحرّرة من المراجع «الخارجية»، ومن ثقافة العصور الوسطى، المعادية للفردية وشروط تكوّنها. رافق ذلك ابتعاد متزايد عن «الإيمان التقليدي»، واقتراب من عدم اليقين، والخروج من المقولات الدينية التقليدية إلى قيم أخرى. يقول بوركهارت في هذا المجال: «وأخيراً، فإن هؤلاء الجبابرة العقليون، هؤلاء الممثلون لعصر النهضة، أظهروا في ما يتعلق بالدين، صفة شائعة في الطبائع الفتية الشابة. وإذا هم يفرّقون تفريقاً حاداً بين الخير والشر، فإنهم مع ذلك لا يعون معنى الخطيئة. فإزاء كل إزعاج لانسجامهم الجواني يشعرون في أنفسهم القدرة على إخراج الخير من الموارد اللدنة الكامنة في طبيعتهم الخاصة، وبذلك فإنهم لا يحسّون بأدنى ندم. وهكذا تصبح الحاجة إلى الخلاص محسوسة بغموض يزداد أكثر فأكثر، بينما طموحات الحاضر والنشاط الفكري الذي فيه يحجبان حجباً مطلقاً كل فكرة عن عالم آت، وإلا فهي تتسبّب له في أن يتخذ شكلاً شاعرياً بدلاً من شكل دوغماتي عقيدي ملزم...»(٨).

٤ ـ أقصى التصوّر النهضوي مقولات الخطيئة والندم والإيمانية المطلقة، وهي وجوه لعقيدة العصور الوسطى، واستعاض عنها بالانسجام الداخلي والخلاص المحسوس والخير الصادر عن الاختيار الحرّ. جاء هذا التصوّر من فرد وضع مرجعه في ذاته، ومن فساد كنيسة عجوز استبدادية الممارسات، وانتهى إلى ديانة شخصية، يصل الفرد إليها عن طريق خاص به، أو إلى إيمان شخصي، أخذت به خيرة العقول في ذاك الزمان. تميّز التديّن الشخصي بالقطع مع المطلقات والانصراف إلى واقع قابل للمعاينة، بعيداً عن التصوّرات المجردة النهائية. ولذلك، «اعترف الإيطاليون في القرن الثالث عشر بمثل أعلى إسلامي للنبل والكرامة والكبرياء»، وأعجبوا بـ «تلك الحضارة العجيبة التي بلغها الإسلام، وبوجه خاص قبل الطوفان المغولي». صرّح هذا الإعجاب بمعرفة متسامحة، فلا يمكن الاعتراف بطرف مجهول، وبإرادة حرّة تقرّر معاييرها بلا إكراه وأحكام مسبقة.

٥ ـ قرأ ياكوب بوركهارت موضوعه اعتماداً على فكرتين تقولان: «إن الفردية هي المجلى الأوضح لثقافة عصر النهضة، وإن الظروف السياسية هي مصدر الثقافة ومرجعها». أكّد الفردية مفتاحاً لثقافة عصر النهضة، وأكد السلطة السياسية مفتاحاً للثقافة النهضوية. يُفسّر الأمر، في وجهيه، بحاجة تاريخية، أملت على الوسائل تكييف الغايات بعيداً عن ثنائية الخير والشر المجرّدة. فقد أطلق الصراع المحموم على السلطان السياسي في تلك الحقبة، كما الأنانية والجشع والتماس المصلحة، الشخصيةالإنسانية من عقال المحرّم والمسموح، وساوى بين الموهبة والفوز، وبين الجرأة وانتزاع «الملكية» من آخر. أصبحت كفاءة الفرد الفاعل «أرجح وزناً من القوانين، ومن العرف المتبع في أماكن أخرى من بلاد الغرب..»، وهو ما جعل «الابن غير الشرعي» شرعياً، والزواج «غير المتكافئ» متكافئاً، طالما أن المعيار هو الفوز والغلبة، لا غيرهما. أسس هذا المعيار شكلاً جديداً من التربية، غايته تأمين الفوز وتقويض معوقاته، والتحلّي بالثقة والصبر والمراوغة والعطف على الآخرين، وجملة الوسائل التي تفضي إلى

(٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

غايات مرتقبة أو غير مرتقبة. ومع أن في هذه التربية ما يحيل على كفاءة، مصنوعة أو طبيعية، فإن فيها مساحة واسعة للمجازفة والمغامرة، اللتين تتفقان مع شرط اجتماعي ـ سياسي غابت عنه المعايير التقليدية: «في بلدنا المولع بالتغيّر، الذي لا يدوم فيه شيء ثابتاً على حاله، والذي لا توجد فيه أسرة مالكة عريقة، يستطيع الخادم أن يصبح بغاية اليسر ملكاً»(٩). والواضح في هذا مجتمع تحرّر من ماضيه، واتخذ من حاضره ماضياً ومستقبلاً معاً، مطلقاً سباقاً اجتماعياً، لا تحفّظ فيه ولا روادع اجتماعية، يبيح كل شيء.

ثالثاً: النهضة والتاريخ

١ ـ تأخذ النهضة في فكر بوكهارت تعريفاً محدّداً: إنها فترة الهيمنة الثقافية الإيطالية على أوروبا، التي برهنت عن دينامية إيطالية، غايرت ركوداً أوروبياً مشدوداً إلى عصور وسطى تقترب من الأفول.

رأى المؤرخ في الحالة الإيطالية، بعد عزلها عن غيرها، مبتدأ للأزمنة الحديثة، التي أقامت علاقات مع العالم، تأسست على نظر جديد إلى الدين والإنسان والتاريخ. ومع أن بوركهارت يتفق مع مؤرخين آخرين في موضوع التحديد الزمني لولادة النهضة، فهو يختلف معهم في التعامل مع أسبابها. فقد شرحها هؤلاء بتقدم المعرفة في مجالات متعدّدة، وبدور هذا التقدم في صوغ منظور جديد للعالم، بينما أرجعها المؤرخ السويسري إلى الفردية، التي توطّدت ملامحها في القرن الرابع عشر تقريباً، ودفعت بالإنسان إلى موقف جديد من الله والعالم والإنسانية. ارتبطت هذه الفردية بأشكال جديدة من الحياة السلطوية، أعقبت هزيمة الإقطاع وظهور جمهوريات مدينية، أعطت مكاناً واسعاً للموهبة والبراعة الفردية. ومع أن هذه الحياة السلطوية التبست بأقدار مختلفة من الاستبداد والعنف والجشع، فقد بدت، في شكلها الموضوعي، حاضنة لجملة أعمال عقلانية، كما لو كانت «آلة عاقلة» تفصل المفيد عن غير المفيد. فهذه «الآلة الغريبة» جمعت بين العلمانية والعقلانية، مفضية، في نهاية المطاف، إلى تنظيم اجتماعي جديد، نهض على أنقاض المؤسسة الإقطاعية ـ المسيحية.

ربط المؤرخ بين ولادة الفردية و«الدويلات الإيطالية»، المدينة ـ الدولة، التي مزّق تشكّلها الأقمطة الأيديولوجية والفكرية الموروثة، ودفع إلى ولادة طليقة جديدة. ألزم الوضوح الغامض، الذي حايث «الولادة»، أو الاكتفاء بالوصف وتهميش التحليل، المؤرخ بالحديث عن العبقرية الإيطالية الخاصة، التي تستمد أسبابها من روما القديمة، «التي ستبقى ماثلة أبداً في خيال العالم المتمدن كمدينة لا يمكن تجاوزها»، كما يقول. ولعل الأصل العبقري، أو العبقرية الأصلية، هو ما أقنع المؤرخ بالانطلاق من «الفرد الإيطالي»، وفصله عن «الفرد الأوروبي»، وتعيينه «ابناً بكراً للأزمنة الحديثة».

٢ ـ تضمّن تصوّر بوركهارت، الذي يكثر من الحكايات والأمثلة والتفاصيل الوصفية ويعرض عن التفسير، مفارقة واضحة، صالحت بين التحولات الاجتماعية الموضوعية

(٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

و«العبقرية الإيطالية»، وفقاً لمنطق دائري، يفسّر الموضوعي بالعبقري والعبقري بالموضوعي. وبسبب هذه المفارقة، افترق عن مؤرخين آخرين، ألغوا «العامل العبقري»، ورأوا في النهضة الإيطالية وجوهاً من وجوه النهضة الأوروبية، التي وضعت نهاية رسمية للعصور الوسطى. فالتحولات التي عرفتها فرنسا، ابتداء من القرن الثاني عشر، وبما يتعلق بالمدينة ـ الجمهورية بخاصة، لا تختلف عن تحوّلات المجتمع الإيطالي في الفترة عينها[١٠].

أكثر من ذلك، وكما يؤكد الفيلسوف البولوني «يان باتشوكا»، أن العصر الوسيط لم يكن كلياً «عصراً لاهوتياً»، فقد وجد فيه من اهتمّ بعلوم الطبيعة، وأن «اكتشاف الإنسان»، الدنيوي الاهتمامات، سابق لأفكار الإيطالي دانتي، الذي قام بتطوير إبداعي لإسهامات سابقة[١١]. والواضح، ولو بقدر، أن المؤرخ السويسري تاخم «الإطلاقية» مرتين: مرة أولى حين نسب توليد الأفكار النهضوية إلى الإيطاليين دون غيرهم، ومرة ثانية حين أعطى النهضة بداية نقية مطلقة انبثقت من «روما قديمة» في ساعة مؤاتية، وهو ما لا يقول به المؤرخ الهولندي يوهان هويزنغا في كتابه الشهير: **اضمحلال العصور الوسطى**، الذي يشير عنوانه إلى عملية تاريخية بطيئة، تطفئ ظواهر وتستولد أخرى[١٢]. لا غرابة، والحال هذه، أن تنطوي أفكار بوركهارت على تناقض، يؤالف بين العقلانية والغموض غير العقلاني، فهو عقلاني حين يُرجع تشكّل الإنسان النهضوي إلى ممارسات جديدة «منقطعة» عن ممارسات حقبة تاريخية سابقة، وهو لاعقلاني حين يختصر الجديد الحاسم إلى العبقرية. تبدو الفردية النهضوية التي يقول بها، في الحالين، مزيجاً من التمرد و«التحطيم الأعمى» للموروث، الذي يعالج خلله روح غامضة، تجعل من السلطة «عملاً فنياً»، ومن «الحرب فناً آخر»، ومن النهضوي الإيطالي عنواناً للجمال، بامتياز. تتوزّع الروح الغامضة، ربما، على العبقري الأصلي، من ناحية، وعلى تاريخ واعي الإرادة، يضبط ممارسات إنسانية مختلفة ويستولد منها، في النهاية، معنى إيجابياً لا ينقصه الوضوح. رأى بوركهارت في تاريخ النهضة الإيطالية مشهداً جمالياً واسعاً، وجعل من الجمال كياناً متعالياً لا يحتاج إلى تاريخ.

على خلاف المنظور الهيغلي التعاقبي، الذي يوزع الفردية على حقب متلاحقة، درس بوركهارت الثورة البورجوازية الأوروبية، في وجوهها الاجتماعية المتعددة، وساوى بينها وبين حلم الإنسان الأعلى، المتوّج بالفضيلة والجمال.

٣ ـ أبصر هيغل الشاب قبل بوركهارت، في كتابه: **فينومينولوجيا الروح**، في الفردية

(١٠) Johan Nordström, *Moyen âge et renaissance; essai historique*, traduit du suédois par T. Hammar, Fonds Descartes, publications (Paris: Librairie Stock, [1933]).

(١١) Jan Patočka, *L'Art et le temps*, préf. d'Ilja Srubar; trad. du tchèque par Erika Abrams, agora; 96 ([Paris]: Presses pocket, 1992), pp. 104-112.

(١٢) يوهان هويزنغا، **اضمحلال العصور الوسطى** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تعبيراً متطوراً عن التاريخ الإنساني كله، وليس اختصاصاً ملحقاً بالأزمنة الحديثة وحدها[١٣]. فبعد أن ارتبط إنسان الأزمنة القديمة بالجماعة، أعقبه إنسان العصور الوسطى الذي تطلع إلى ما وراء هذا العالم، في انتظار إنسان الأزمنة الحديثة، الذي أصبح فردية حرّة، تنتمي إلى الجماعة والآخرين داخل الدولة، موحّداً بين الروحي والموضوعي. على خلاف المنظور الهيغلي التعاقبي، الذي يوزّع الفردية على حقب متلاحقة، درس بوركهارت الثورة البرجوازية الأوروبية، في وجوهها الاجتماعية المتعدّدة، وساوى بينها وبين حلم الإنسان الأعلى، المتوّج بالفضيلة والجمال. وما موقفه من «روما القديمة» التي هي مثال إنساني لا يمكن تجاوزه، إلا «وشاية» بهذا الحلم القديم ـ الجديد، الذي انبثق مجدداً في إيطاليا عصر النهضة.

وواقع الأمر أن خطاب بوركهارت تضمّن، بشكل واضح أو مضمر، أمرين: صالح بين علم الجمال، وعلم التاريخ، وهو ما أشار إليه بول هاملتون في كتابه: **التاريخانية**، ولمح في حياة البشر غموضاً لا يمكن تفسيره، وهو ما قال به بول ريكور، بشكل سريع، في كتابه: **الزمن والحكاية**[١٤]. ولهذا اكتفى بالوصف وأعرض عن التفسير، إلا بقدر، تاركاً غيره يشتق من الوصف الواسع الذي قام به، التفسير الذي يريد. وما مجازه الجمالي، الذي قرأ به «عصر النهضة في إيطاليا»، إلا تعبير عن منهج يؤثر التأمل الطليق على البحث عن «الحقيقة». ولذلك، يبدأ كتابه بفصل عنوانه: «الدولة كعمل فني»، قبل أن يتحدث عن «فن الحرب» وفنون أخرى.

رابعاً: النهضة والثقافة

١ ـ يحمل عنوان كتاب بوركهارت: **حضارة عصر النهضة في إيطاليا** التباساً محدّداً، جاء من اللغة الألمانية التي وضع بها المؤرخ كتابه، حيث الثقافة والحضارة تتقاسمان مفردة واحدة. يفيض معنى الثقافة، في المفردة الألمانية، عن المعنى القائم في المفردة الإنكليزية (Culture) الذي يحتضن التربية والتعليم وتهذيب الذوق والقيم الجمالية. وحّد المؤرخ السويسري، في كلمة حضارة، بين الثقافة، من حيث هي منظور للعالم وحاكم للسلوك، والحضارة التي هي ترجمة لأفكار الإنسان إلى صناعة وتقنيات مختلفة. كشف كتابه عن نظر «النهضوي الإيطالي» إلى العالم والحياة وأشكال استجابته لقضايا زمانه، وعن الاتجاهات العقلية التي صاغت مؤسساته، وأنتجت قيماً اجتماعية «موجّهة بمنظور مستقبلي».

تحيل الثقافة، بالمعنى الذي قصده الكتاب، على الحياة اليومية التي تلغي المسافة بين النظر والعمل، مستدعية المرئي الاجتماعي في شكله العفوي، وعلى المنظور النقدي، الذي يتجرأ على المقدّس أو يستبدل مقدساً بآخر، وعلى الماضي الذي يحضر كاملاً أو تذوب «شظاياه» في الحاضر. تتمظهر الثقافة النهضوية، في الحالات جميعاً، في الجديد الذي تحتفي به، جديداً فعلياً كان أو قديماً جدّده السياق، وفي الموقف من القديم الذي يحرمه الحاضر من

(١٣) Patočka, Ibid., p. 117.

(١٤) Paul Ricœur, *Temps et récit*, l'ordre philosophique, 3 vols. (Paris: Seuil, 1983-1985), vol. 3, p. 425.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

استقلاله الذاتي. غير أن هذه الثقافة، التي تتعيّن باليومي، وبحدود النقد والذائقة الجمالية، لا تستبين واضحة إلا في الحضارة الدنيوية، الممتدة من «المؤسسات الرسمية» إلى المتاحف والنصب التذكارية. وهو ما أشارت إليه أغنس هيلر، حين قرأت «المركز الثقافي الهيليني» في مواضيع حضارية، مثل: المعبد والحمّام والمسرح، و«المركز الثقافي المسيحي» في الكنسية والمقبرة ومكان المعمودية[١٥]... ولهذا أفرد بوركهارت مكاناً واسعاً للجامعات والمدارس، وروما «مدينة الخرائب، ووصف المدن والأمم، وأحوال الحياة في الحركة، ووصف الإنسان الخارجي...». ربط بين الثقافة، التي تصوغ الموقف الإنساني وتفرض تغييره، والمدينة مفترضاً، مسبقاً، أنه يحلل «ثقافة مدينية» متعدّدة العناصر، تغاير «الثقافة البسيطة» الشفافة، التي تلازم مجتمعاً محدود الأسئلة والحاجات، وفقيراً في ثقافته الفنية.

٢ ـ أدار المؤرخ السويسري حديثه حول مستويين متكاملين: عالج **أحدهما** الأفكار والقيم وتحولاتهما، وقارب **ثانيهما** تفاصيل الحياة اليومية ودقائقها، متوسلاً القصص والحكايات وصوراً فردية وجماعية. يؤكد يوهان هويزنغا، وهو مؤرخ العصور الوسطى المرموق، أهمية التفاصيل اليومية، فيقول: «في اعتقادي أن الأشكال النوعية المحدّدة للفكر في إحدى الحقب، ينبغي ألا تدرس فقط على مستوى التأملات اللاهوتية والفلسفية، ولا في تصوّرات العقائد، ولكن تدرس كذلك على ما تبدو عليه في الحكمة العملية والحياة اليومية، بل قد يجوز لنا أن نقول إن الطابع الحق لروح أحد العصور يتكشّف في طريقته إلى النظر إلى الأشياء التافهة والعادية، والتعبير عنها أكثر ممّا يتجلّى في مجالات الفلسفة والعلوم»[١٦]. جمع بوركهارت بين الفلسفة والأشياء العادية، مؤثراً الوصف على التحليل، مبيّناً، في الوقت ذاته، أن في الثقافة جملة مستويات ثقافية، تتضمن السياسي والأخلاقي والوجودي، وأن «الفن» يخترق هذه المستويات جميعاً... وبسبب ذلك، يصف الإنسان في وجوهه المختلفة: «وصف الإنسان الخارجي، الوصف الروحي في الشعر، وصف الحياة أثناء الحركة...»، إضافة إلى «الناموس الأخلاقي، والدين في الحياة اليومية...». ليس الربط بين البرّاني والجوّاني، بلغة المؤلف، وهما انعكاسان للثقافة المعيشة، إلا أثراً لفعل الشروط الاجتماعية في الحياة الداخلية للإنسان، التي تعيّن ما يحب وما يكره، وتقترح الوسائل التي تلبّي رغباته.

تتعيّن الفاعلية الثقافية بتعدّدية العناصر المندرجة في ثقافة معينة، التي ينتج تكافلها دينامية خاصة، تفتح الثقافة على آفاق جديدة، وتمنع عنها الركود والتكلّس. عبّرت تعدّدية العناصر في ثقافة الإنسان النهضوي عن وعي مديني، يتعايش مع اللايقين وينبذ الإطلاقيات، ويبتعد عن «المركزية الإثنية» و«المركزية الدينية»... وعن اللايقين، الذي يرى وراء المعلوم مجهولاً تنبغي معرفته. وعن هذا اللايقين جاءت «رحلات الإيطاليين»، وهو عنوان الفصل الأول من القسم الرابع لكتاب بوركهارت، التي أضافت إلى الأمكنة المعلومة أمكنة مجهولة، و«العلوم الطبيعية في إيطاليا»، وهو عنوان الفصل الذي يليه، التي واجهت «الخوف من

(١٥) Agnes Heller, *A Theory of Modernity* (Malden, MA: Blackwell Publishers, 1999), p. 117.

(١٦) هويزنغا، **اضمحلال العصور الوسطى**، ص ٢٢١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحرية» بحرية مقاتلة تكسر العادات المتوارثة. تكشّفت دلالة الثقافة النهضوية في دينامية العناصر المكوّنة لها، التي جعلت المستقبل ماثلاً في الحاضر، وصيّرت الثقافة ذاتها عملية نقدية مستمرة، قوامها الهدم والبناء في آن.

٣ ـ ظهرت دينامية الثقافة المتعدّدة العناصر، على سبيل المثال، في ثلاثة مجالات:

الأول منها دعاه المؤلف بـ «الحديث النقي»، الذي يشير إلى امتلاك صحيح لقواعد اللغة، وإلى مجتمع يتحاور فيه بشر يتبادلون الاعتراف، بعيداً عن «النظام الأسري» القائم على التراتب القمعي، وعن التقاليد التي تمسك بعقل الإنسان وروحه(١٧). يفصح «الحديث النقي» عن تصور ثقافي يلزم الأطراف المتحاورة بإقصاء الذاتي والنفعي والبحث عن الجديد، الذي يسهم في تعديل موضوع الحوار وتغيير تصوّرات المتحاورين. ومع أن في أخلاق الحوار، التي تترجم «قابلية التفاعل الاجتماعي»، ما يوحي بتضييق حرية المحاور، فإن في معنى الحوار ما يقول بغير ذلك، لأنه يرتهن إلى مبادئ غير ذاتية يمليها «الحديث النقي».

يتمثّل المجال **الثاني** بالمقدّمات التي صاغت العاطفة القومية الإيطالية، التي سبقت وجود دولة مركزية حديثة. فقد تشكّلت القومية الفرنسية كمحصّلة لجهود سلطة مركزية عملت على توحيد المجتمع ومجانسته بواسطة سياسة لغوية ـ ثقافية أنجزتها الأجهزة المدرسية والتعليمية، التي أتاحت للفرنسيين أن يتعاملوا بلغة واحدة. سلكت القومية الإيطالية طريقاً مختلفاً، أدت فيه الثقافة دوراً أكثر اتساعاً. فلقد خلقت «لغة البلاط»، المأخوذة بالوضوح والأناقة، نموذجاً لغوياً اجتماعياً، سعت إلى محاكاته فئات المجتمع المختلفة، دافعة إلى لغة حيّة متطورة، صالحت بين الشعبي والرسمي، متخذة من الحاضر وحاجاته مرجعاً لها. وإلى جانب العنصر اللغوي، كانت هناك أبعاد عاطفية أيقظتها أطياف «روما القديمة» في مجدها التليد. غير أن هذين العنصرين لم يصبحا فاعلين إلا بفضل حضور «الإنسان الكامل في المجتمع»، بلغة المؤلف، الذي هو إنسان نوعي ينطق بلغة نوعية، ويستأنف بحماس واندفاع «حضارته» القديمة التي قصّرت عنها الأمم الأخرى. يُفسّر تشكّل الوعي القومي، والحال هذه، بإنسان مثقف له مثال خاص به، كان ذلك في حقل اللغة أو في حقل آخر.

يرتبط المجال **الثالث** بالتصوّر النقدي، الذي شكّل علاقة داخلية في التصوّر النهضوي للعالم، تحذف وتضيف اتكاء على حاجات الحاضر ومتطلباته. قاد النقد إلى تهميش هيبة المؤسسات الدينية التقليدية، التي عاملها بعض حكّام المدن باستخفاف كبير، وإلى تفكيك التراتب الاجتماعي الموروث، المشدود إلى الأصول والعراقة والألقاب، وإلى اتخاذ النافع والمفيد بديلاً من الخيّر والفاضل في الأعراف التقليدية. لم تكن إعادة بناء المعايير الاجتماعية ممكنة من دون ثقافة جديدة، تمركزت حول الدنيوي والأهداف الدنيوية واختبارها، واعتنقت «المبادئ المتحوّلة»، التي جسّرت المسافة بين الافتراضي والواقعي. أسست هذه الثقافة في

(١٧) Hannah Arendt, *La Crise de la culture: Huit exercices de pensée politique*, traduit de l'anglais sous la direction de Patrick Lévy, idées; 263 ([Paris]: Gallimard, 1972), pp. 40-48.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عناصرها النظرية ـ العملية عصر النهضة الإيطالية، مرتكنة إلى الفعل الإنساني الإبداعي، الذي أضاف «الفن» إلى الممارسات الاجتماعية، وجعل من الحياة اليومية ممارسة «فنية».

دعا المصري سلامة موسى إلى النهضة، واعتبر الثقافة الجديدة شرطاً لنهضة جديدة. أكّد في كتابه: **ما هي النهضة** اعتبار الثقافة مقدمة لا بد منها للحضارة، ذلك أن «الثقافة تسبق الحضارة وتؤدي إليها»، وأن «قاعدة الثقافة هي اللغة»، «فلا يمكن إيجاد ثقافة راقية بلغة منحطّة، ولا ثقافة متحركة بلغة جامدة». قام المربّي المصري بتعريف المقولات، ولم يقل شيئاً عن الأسباب الاجتماعية التي تسقط مقولات وتستبدلها بغيرها. انتهى إلى مديح المجتمع الصناعي، وهجاء المجتمع الزراعي، مطمئناً إلى منظور رغبي متفائل، يحتفي بالثقافة الجديدة ويصمت أمام الأسباب التي تنتجها(١٨).

خامساً: النهضة وفضول المعرفة

١ ـ يقول بوركهارت في الفصل المعنون «العلوم الطبيعية في إيطاليا»: «ثم لم يلبث الإيطاليون أن جاوزوا تلك الروح، كما أنهم تغلّبوا عليها في أحيان، بفضل تلك الرغبة العارمة في اختراق المستقبل...». تضيء الجملة بعدين: طموح الانتقال من زمن مألوف إلى آخر غير مألوف، كما لو كان الجديد قيمة بذاته، وطموح امتلاك المعرفة التي تؤمن سلامة الانتقال. يتراءى في البعدين تمرّد على المتاح الذي تمليه العادة، ورغبة تستبدل بالمعرفة المعطاة معرفة مغايرة قابلة للتكوّن. ويشير في الصفحة اللاحقة إلى كره «رجال محكمة التفتيش الدومينيكان والفرنسيسكان أيضاً» للعلوم الطبيعية، وبخاصة للتجارب العلمية. إن الروح التي تمّ تجاوزها، المشار إليها، هي تلك التي تكره العلم والتجريب العلمي، وتكره، تالياً، الفضول المعرفي، الذي يستبدل بالمعطى الساكن نزوعاً قوامه التكوّن المفتوح.

٢ ـ تميّزت النهضة، بالشكل الذي وصفها به المؤرخ، بتوليد فضاء اجتماعي فتح الطريق أمام التأكيد الذاتي للإنسان، الذي امتلك رغبة التعرّف على الطبيعة وترويض أسرارها، وامتلاك الوسائل العلمية والتقنية المطابقة. لم يكن التأكيد الذاتي للإنسان، بهذا المعنى، ممكناً من دون تحويل العالم، الذي ترجم تحوّلاً داخل الإنسان، مبعثه الفضول المعرفي، واعتراف الإنسان بذاته قيمة مستقلة(١٩). أصبح التجديد العلمي نقداً فاعلاً للعلوم المعطاة (المتوارثة)، وكشفاً عن طموح إنسان يؤسس وجوده على قواعد جديدة. ولهذا بدت الطبيعة التي رسمت ملامحها رحلات الاستكشاف والفضول المعرفي مشهداً فاتناً واسعاً، محتشداً بمواضيع ومعطيات مدهشة، جديرة بالتأمل في ذاتها، دون الرجوع إلى اللامرئي

(١٨) سلامة موسى، **ما هي النهضة ومختارات أخرى** (الجزائر: موفم للنشر، ١٩٨٧)، ص ١٤٧ ـ ١٥١.

(١٩) Hans Blumenberg, *La Légitimité des Temps modernes*, trad. de... [la 2ème éd. allemande] par Marc Sagnol, Jean-Louis Schlegel et Denis Trierweiler; avec la collab. de Marianne Dautrey, bibliothèque de philosophie ([Paris]: Gallimard, 1999), pp. 450 - 460.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والقوة القادرة الواقفة وراءه. رأى بعض الفلاسفة في الفضول «أمّاً للعلوم»، ومعياراً يفصل بين الشعوب المتيقّظة والشعوب البليدة، بل إن هذا الفضول، الذي يوحي بنزوع إنساني إلى الكمال، ينطوي على نزعة ديمقراطية بيّنة، لا بسبب إقصاء «الإطلاقيات» التي لا تعترف بالنسبي فحسب، بل لأنه يربط بين العلل والمعلومات، متجنّباً ما لا تمكن البرهنة عنه، ومنتجاً معارف موضوعية تتجاوز «الأذواق الشخصية». أكثر من ذلك، إن تحقق الفضول لا يتطلب إلا غياب العوائق، التي تقمع العقل، والتحرر من سلطة المألوف التي ترى في الحديث عن المجهول هرطقة جديرة بالعقاب. وبسبب ذلك، أخذ العالم الحديث، الذي يقول بنسبية الحقيقة، مكان رجل الدين القديم، الذي لا يميل إلى التجريب، ويتمسك بالحقائق المطلقة.

تبدو الفردية، التي تمزج الكمال الإنساني بالبحث عن المجهول، فضيلة وعبئاً معاً: فهي فاضلة توسع درب الإنسان إلى السعادة، وهي عبء ثقيل يدلل على أن النقص الإنساني لا خروج منه، إذ وراء كل مجهول مجهول آخر.

٢ ـ إذا كانت الحقيقة اللاهوتية تبدأ بالإثبات، إذ كل شيء واضح في بدايته ونهايته، فإن الحقيقة التي يقول بها الفضول المعرفي تبدأ بالنفي، فلا شيء صحيح إلا بعد البرهنة عن صحته. يدفع هذا الفرق رجل اللاهوت إلى الحديث عن «الحق» دون إضافة خارجية، ويدعو رجل العلم إلى التعامل مع «تاريخ تشكّل المعرفة العلمية»، القائم على الحذف والإضافة «داخل» عملية لا تعرف الانغلاق.

تبدو الفردية، التي تمزج الكمال الإنساني بالبحث عن المجهول، فضيلة وعبئاً معاً: فهي فاضلة توسع درب الإنسان إلى السعادة، وهي عبء ثقيل يدلل على أن النقص الإنساني لا خروج منه، إذ وراء كل مجهول مجهول آخر، ووراء المجاهيل المختلفة احتمالات لا يمكن الركون إليها.

٣ ـ عالج ياكوب بوركهارت موضوع النهضة بمعلومات كثيفة، وأدرج في وصفه الكثيف إشارات متعدّدة موحية، كما لو كان قد وضع في نصّه المباشر نصّاً آخر غير مباشر، يقرأ في السطور وما بين السطور في آن. قارب النصّان معاني: النهضة والمعرفة والتجدّد واكتشاف الإنسان وصعود الفنون...، وتركا للقارئ فسحة ذهنية تقرأ الفرق بين مجتمع وآخر، وبين المجتمعات التي تعرف الفضول المعرفي، وتلك البليدة التي لا تعرف من أمره شيئاً، كما ادعى فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر بدعة: سولتسر[٢٠] □

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

This file was downloaded from QuranicThought.com